بسم الله الرحمن الرحيم

شكروعرفان

إلى من نادى المؤمنين:

﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [التوبة: ١٠٥].

إلى من بفضله يوفق العاملين إلى العمل..

إلى من لايضيع عنده العمل ويجزى به..

إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور..

إلى ربى الذى أحسن مثواى..

فله الفضل والحمد على توفيقه

دكتور

محمد فؤاد حجازى

obeikan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تعتبر الكتابة عن النظريات الاجتماعية من أصعب وأدق الموضوعات فى علم الاجتماع، فالنظريات الاجتماعية تحاول أن تصل إلى مستويات النظرية فى العلوم الطبيعية، بل يمكن القول أن النظريات الاجتماعية فى محاولاتها تلك تتشبه وتوزن بمستويات العلوم الطبيعية، ولكن الملاحظ فى النظرية الاجتماعية أنها تعانى من عدم الاتفاق بشكل واسع ليس فقط حول المنهج فى البحث الاجتماعى، ولكن أيضا حول طبيعة نظامها، وكذلك تعانى من دور الأحكام الأيديولوجية.

وبالرغم من مرور أكثر من قرن على قبول علم الاجتماع أكاديميا، فإنه مازال فى مرحلة ماقبل النموذج، ذلك يعنى أنه لايوجد نموذج للتجارب العلمية أجمع عليه علماء الاجتماع فأصبح نموذجًا يحتذى. ولهذا يتوقع الإنسان نظريات عديدة ومتنافسة، وإن كان هذا لايعنى عدم وجود بعض المدارس الاجتماعية المتعاونة التى تهدف إلى التقدم نحو القيام على أسس تجريبية ذات أهمية جوهرية تدفع بالنظرية فى علم الاجتماع إلى الاقتراب من شقيقتها فى العلوم الطبيعية، ولكن حتى الآن يمكن أن نقرر دون خطأ يذكر أنه ليس هناك نموذج نظرى استطاع أن يحوز على إجماع علماء الاجتماع، أوحتى يكتسب السيادة على سائر النماذج، إذ أنه حتى الآن لايوجد فى الحقل الاجتماعى منظور نظرى استطاع أن يحيط بمسألة اجتماعية تعلو على الزمان، أى قانون له صفة الدوام كقولنا فى العلوم الطبيعية: المعادن والسوائل والغازات تتمدد بالحرارة.

وإن كان كثير من علماء الاجتماع يذهبون إلى أن التنظير أمر ثابت كنشاط مستقل عن العلوم الطبيعية وقائم على منهج علمى، فهم يرفضون الزعم القائل بأن علم الاجتماع غير قابل للتنظير، وكل مافى الأمر أن العلم مازال يشق طريقه بين متغيرات صعبة تعوق نموه.

obeikan.com

وغنى عن البيان أن مايراد باصطلاح النظرية الاجتمـاعية فى علم الاجتماع هى محاولة التميـيز بين مجرد نظرات أو تأملات مقبولة، وبين فـروض قابلة للاختبار بدقة طبقًا لمعايير ذلك النوع المشتق من النظريات العلمية الناجحة، وفى الحقيقة أنه يوجد فى داخل الحقل الاجتماعى بعض المنـظرين الاجتماعيين يجاهدون من أجل إثبات أن النظريات السسيولوجية هى نظريات مـقبولة علمياً، وأيضا يجاهدون فى صياغة فروض يمكن اختيارهـا بدقة تجريبياً، وفى هذا الشأن تواجه أولئك المنظرين صعـوبات جمة، وأهمهـا مايسمى بمشكلة الـعلية أو السببـية causaI probIem ، وتنبعث هذه المشكلة من مجموعتـين مختلفتين من المشاكل، الأولى ذلك الموضوع العام الذى يتلخص فى السؤال الآتى: هل يمكن الحـديث عن الفعل الإنسانى عند المستوى الفردى «مستوى الوحدات الصغـرى» أو عند المستوى الاجتماعى «مستوى الوحدات الكبرى» على أن هذا الفعل له علة أى له سبب؟ والسؤال الملازم السابق هو: هل الوصف والشرح للسلوك الإنسانى لا يتطلب استـخدام لغة القصد بمعنى هل السلوك الإنسانى مـقصود أكثر منه مـعلول؟ أما المجموعة الثـانية من المشاكل فتتلخص فيـما إذا كان الفعل الإنسانى يبلغ من التعـقيد إلى درجة يستحـيل معها التحليل العلى CausaI anaIysis.

وفى الحقـيقة أن الاستـخدام العادى لكلمـة سبب أوعلة cause يحدث بطرق مختلفـة فى مقابل مجموعـة من الظروف الأولية المعقدة، وهنا ماذا يمكن اعـتباره ظرف ومـاذا يمكن اعتـباره سبـب؟ ذلك كله عادة يتـوقف على الاهتمـام العلمى للباحث، على أى حال هذه الصعوبات التى تواجه عالم الاجتماع وخاصة مشاكل العلية المركـبة، والأسباب المتعـددة، والأسباب غيـر القابلة للتحديد، والاعـتماد المتبادل، وتفـاعل المتغيرات العلية، لـم يعد كل هذا عوائق لعلم الاجتمـاع، فقد استطاع العلم أن يعبر هذه المرحلة، فـإلى جانب هذا التراث الضخم من النظريات الشاملة لظروف واتجاهات واسعة والنظريات الجامعة لعوامل غير متجانسة، ومجرد تقارير عن ارتباطات إحصائـية يساندها تفسيرات جيدة، فمـا زال علماء الاجتماع يكافحون فى مجال النظرية، فإلى جـانب النماذج العضوية للسلوك الإنسانى التى تتمـيز باستـخدام مفـاهيم التوازن، يوجد أيضـا نظريات عامـة تبحث عن حلول

تجريبية للجدل حول الصـراع والاتفاق العام أى «الاجتماع Consensus»، وأخرى تعمل على إبراز القضايا السسيولوجية فى شكل يشبه القانون، ومتغيرات اجتماعية يربط بينها علاقات علية، وأخر تعـمل على الكشف عن العلاقات الشبه علية بين المتغيرات الكثيفة مثل الثقافة والاقتصاد.

ولكن الصعوبة الكبرى التى تواجه عملية التنظير فى علم الاجتماع لاترجع إلى طبـيعـة العلم بقـدر مـاترجع إلى المنظرين أنفـسـهم الذين يسـتـسلمون لـلقهـر الأيديولوجى، ويصبح كل فـريق منهم فرح بما لديه من فكر، بل قـد يصل الحال ببعض المنظرين إلى الـوقوع أسرى ماأقـاموه هم من فكر، والبعض الآخـر أسرى مصالحهم، ذلك يرجع إلى أن علم الاجتماع عندما يتعامل مع المجتمعات الإنسانية هو يتعـامل مع الجماعات الاجـتماعيـة بالدرجة الأولى، حيث تتضـارب المصالح الضيـقة والقـصيـرة، وأعنى بالضيـقة أى الخـاصة بجـماعة دون أخـرى، وأعنى بالقصيرة قصر نظر الجماعات لسعيها وراء العاجلة، ذلك كله يرجع إلى جهل هذه الجماعات بطبيـعة هذا العلم الذى يسعى للكشف عن الحقيقة الاجـتماعية، والتى لقصر النظرتعمل كل جماعة على أن تخرج تلك الحقيقة ملتوية لتؤيد مصالح هذه الجمـاعة أو تلك. وهذا إن دل على شىء، فإنمـا يدل على جهل هذه الجمـاعات المتصارعة بأهمية هذا العلم وما يمكن أن يقدمه من خير للجميع، ذلك إذا شجعت المجتمعـات العلماء فى هذا الحقل بغض النظر عن المصالح المتضاربـة مثلما فعلت المجتمعات مع العلوم الطبيعية، فتعرف هذه الجماعات الحقيقة الاجتماعية، وأعنى بها هنا الغرض من هذا الاجتماع البشرى ووسائل إنمائه حتى تنعم البشرية بخيرات الطبيـعة والمعلم، وتسـود بيننا الأخوة الإنـسانية فننـعم بمعانى الأخوة مـن الوفاق والتعاون والحب.

والله ولى التوفيق..

دكتور

محمد فؤاد حجازى

obeikan.com